

مخطط التصورات العلمية بين ماضيها وحاضرها من كواين إلى ميشيل سير

Diagram Of Scientific Perceptions between its past and
present from Quine to Michel Serres

: ط.د. هاجرة حمديني

، جامعة قسنطينة-2 الجزائر

hadjiraham18@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/06/01

تاريخ الاستلام: 2025/02/06

ملخص:

مخطط التصورات العلمية عند كواين يتأسس على الأشياء الفيزيائية، التي تطور اللغة كنمو اجتماعي، وهو مرن وقابل للتطور ذاتيا وللتحسين ويرافق الإنسان عبر مراحل تعلمه، ويعتمد على اللغة، وكذا الثقافة دون أن تكون هي العلم، فكواين ينتقي من بين الأساطير ما يمكن أن ينشئ لنا بنية نتعامل معها تجريبيا، ويدخل الحدود العامة والجزئية وفق معيار براغماتي، ونعيد صياغتها طلبا للوضوح واليقين أكثر مستخدمين معيار إعادة الصياغة، وهكذا نوسّع اللغة.

هدف هذا المخطط هو التنبؤ عن المستقبل في ضوء خبرة الماضي، ومعيار قياسه ينبغي أن يكون براغماتيا لا واقعيا، والتصورات تُعدّ لغة الهدف منها ومن اللغة هو الفعالية في التواصل وفي التنبؤ، وكذلك الأناقة والاقتصاد الفكري، ويضيف ميشيل سير لمخطط التصورات الثورة التقنية التي تُعدّ ارتقاء وتطورا في جنس اللغة دون التخلي عن الإقرار باكتمال

المفاهيم بفضل التطبيق والتجريب، وما يوجد في الذهن هو ما امتحنه الجسم بالتجارب.

والعناصر الأساسية لبناء العلم عند كواين هي اللغة، العالم ومخطط التصورات، والترابط الدائري بينها هو سمة لطبيعة الإنسان، والبحث في هذه الطبيعة هو مهمة الاستمولوجيا الطبيعية؛ ففلسفة كواين فلسفة علمية مثلما يصفها سير لأنها تُعنى بنفسها دونما حاجة لما يؤسسها، إذ لا توجد مرجعية معينة لعلوم ما، وكل سؤال فلسفي هو على قدم المساواة مع السؤال العلمي وله أنطولوجيته أو ما يطلق عليه كواين "الالتزام الأنطولوجي للخطاب"، فالنسبية الأنطولوجية قائمة على أن المعرفة ليست مباشرة بل تنتقل عبر اللغة ومن خلالها، وأيضا المعرفة لها تاريخ طويل، وهي تتطور وتتأثر بعوامل توجه مسار تطورها، باختصار المعرفة عند كواين عملية مفهومة بواسطة الخطاطة المفهومية التي يتم اكتسابها من خلال تعلم اللغة، والتي تتطور بتطورها.

الكلمات المفتاحية: العلم-اللغة-أساطير-المخطط المفاهيمي-تجريبية-براغماتية-طبيعية-كواين-ميشيل سير.

Summary :

The scheme of Quine's scientific conceptions is based on the physical things that develop language as social development, and it is flexible and subject to self-development and improvement, and accompanies man through his learning stages, and depends on language and culture without being the science, so Quine selects from among the myths what can create a structure for us we deal with it empirically, and it introduce general and partial limits according to a pragmatic standard, and we reformulate it in order to seek clarity and certainly more using the standard of reformulation and so we expand the language.

The aim of it and language is effectiveness in communication and prediction, as well as elegance and intellectual economy. Michel Sir adds the technical revolution, which is an evolution and advancement in the genus of language, without abandoning the recognition of the completeness of concepts thanks to application and experimentation, and that what is in the mind is what the body has been tested by experiments.

The basic elements for building science for Quine are: language, the world and the scheme of perceptions, and the circular interconnectedness between them is a feature of the nature of man, and research in this nature is the task of natural epistemology, Quine's philosophy is a scientific philosophy, as Michel Sir describes it because it is concerned with itself without the need for what establish it. There is a specific reference for a science and every philosophical question is on par with the scientific question and has its ontology or what Quine calls "the ontological commitment to discourse".

Ontological revolution is based on the knowledge, is not direct but its transmitted through and through language, and also knowledge has a long history as it develops. Influenced by factors that direct the course of its development. In short, knowledge at Quine is a process that is understood by conceptual schema acquired through language learning and which develops with its development

Key Words: Science – language –Myths –The schema conceptual – Experimental – Pragmatic – Naturalism– Quine – Michel Serres.

hadjiraham18@gmail.com

هاجرة

حمديني

المرسل:

المؤلف

أولا. مقدمة

مع تقدم العلم وظهور نظريات تفسر ما كان غامضا، فتُجلى الستار عن بعض ما كان يُحير البشرية ولا يزال، يكتشف الإنسان بين الفينة والأخرى نظرية أقوى وأصلح من سابقتها، إذ تأخذ بيده المعطيات الحسية إلى فروض أخرى وتدفعه إلى البحث، فيقف على الأرضية الأولى ويستطلع الجديد ويُجرب إلى أن يجد أرضية أصلب، وهو متيقن بأنه سيُعيد الكرة كلما لاح له بالأفق شيء ما يُريبه، أو شيء ما يعمل على زلزلة هذه الأرضية الصلبة التي يستند عليها، فهو ينتقي من النظريات ومما يعتقد فيه بما يتلاءم وقدرة النظرية العلمية على التنبؤ بالمستقبل وتفسير الظواهر كحد أدنى، فإن انتفت هذه الوظيفة بات لزاما عليه أن يغير، ولست أروم الفصل في مسألة كيفية تقدّم العلم من حيث اتصاله بالمعارف القديمة أو انفصاله عنها، بل أهداف في مقالي هذا لعرض مخطط التصورات الذي يوجه العالم/ الفيلسوف في عمله في العصر المعاصر، وأحدّد "ويلارد فان أورمان كواين" نموذجا، وسأقتصر على مخطط التصورات العلمية عنده دون التفصيل في إبستمولوجيته "الطبيعانية"، إذ أن هذا المخطط يُعدّ جزءا من هذه الإبستمولوجيا، وعليه أتساءل:

كيف يتشكل مخطط التصورات العلمية الذي يوجّه العالم في عمله عند كواين؟ ما هي خصائصه؟

ونعقد مقارنة بينه وبين الفيلسوف الإبستمولوجي "ميشيل سير" باعتباره فيلسوفا موسوعيا، فما هي أوجه الاتفاق وما هي أوجه الاختلاف بينهما حول مخطط التصورات العلمية؟ وماذا أضاف هذا الأخير حوله؟

وأخيرا هل للغة دور في تقدّم العلم حسب كواين؟ وما الهدف من مخطّط التصوّرات العلمية حسب وجهة نظره؟

ثانيا. مخطط التصورات العلمية عند كواين

مخطط التصورات الذي نشأنا عليه هو من وجهة نظر كواين إرث انتقائي، والقوى التي عملت على تطوره منذ إنسان جاوا JAVA ذا العقل غير المصقول وغير المتعلم القادر على التعامل فقط مع الأشياء المادية والظاهرة للحواس كانت تخمينية¹، قد يكون مرد ذلك إلى اعتبار كواين العلم امتدادا للحس المشترك نفسه كما صرّح بذلك في مقاله "الإبستمولوجيا الطبيعية"، إذ يقول: «العلم لا يحل مكان الحس المشترك، إنه يمدده، يقوم بتمديده»²، وأن المبادئ التي تتحكم في الخطاطة المفهومية للعلم هي مجرد تنسيق لمبادئ الحس المشترك³، ويوافق على ما ذهب إليه الدكتور يوسف تيبس عند تناوله لأفكار كواين الطبيعية كنموذج عن التصور الطبيعي للعالم، إذ تصقل اللغة عن طريق عبارات الملاحظة إدراكات الإنسان، «ومنذ الفترات اللغوية الأولى شغلت التعبيرات عن الأشياء الفيزيائية مركزا أساسيا، لأن مثل هذه الأشياء المادية قدّمت نقاطا مرجعية ثابتة نسبيا للغة كنمو اجتماعي»⁴، وهنا تبدأ وشائج في الارتباط من مثل الأشياء المادية واللغة المعبرة عنها فتنمو اللغة.

يقول كواين: «نمتص فلسفة طبيعية قديمة مع حليب أمّنا، ومع مرور الوقت، نسير في تيار الآداب ونصنع لأنفسنا بعض الملاحظات الإضافية للحصول على رؤية أكثر وضوحا للأشياء لكن هنا يوجد مسار للنمو والتغير التدريجي نحن لا نقطع الصلة بفضاظة مع الماضي، نحن لا نخلق المزيد من

مستوى الحجة والحقيقة النموذجية لنوع مختلف جذريا عن التي ترشد الأطفال والجاهلين»⁵، والبحث عن المعرفة برأي كواين هو مجرد محاولة من أجل توسيع وتعميق المعرفة التي يتمتع بها رجل الشارع، ولا ينبغي إنكار ونفي نواة الحس المشترك، ووضعية رجل الشارع والفيزيائي تثير إشكالا عظيما، ويضيف كواين قائلا: «يجب علينا أن نقبل الحقيقة الفيزيائية، سواء كانت بطريقة بريئة بالنسبة لرجل الشارع، أو مع كثير أو قليل من السفسطة العلمية، إن حدث هذا نحن نتولى دور المودع لديهم المعرفة ورسائل المعرفة الذي سيكشفه التطور خلال آلاف السنين»⁶، يتضح أن المعارف تبدأ من المراحل العمرية الأولى حسب كواين وتتصل بما يحوزه رجل الشارع وتتطور لتصل إلى معارف الفيزيائي، وتجدر الإشارة هنا إلى أن كواين يناقض ديكرت ملهم الإستمولوجيا في جانبها المفهومي، ويصف محاولة بحثه عن اليقين بأنها عبث وأنا اكتشفنا هذا العبث بعد مرور الزمن⁷، كما أن إستمولوجيته قائمة على التأمل، بينما إستمولوجيا كواين ذات نزعة كلية؛ وللتحقق من نظرية علمية ينبغي أن نختبر فروضها كجسم موحد ولا نأخذها إفراديا، والحقائق والنظريات العلمية تخضع لما يصطلح عليه امتناع البت التجريبي فيها.

وقد وجب أن تكون الحدود العامة في مرحلة مبكرة في هذا المخطط، لأن المثيرات المتشابهة تثير استجابات متشابهة من الجانب النفسي، وقد كانت الأشياء المتشابهة تُدعى بالكلمة ذاتها⁸، وهو ما واجهه كواين عند ترجمة كلمة "gavagai" لدى قبيلة بدائية، واستنتج منها امتناع تحديد الترجمة، فالقبيلة تتلفظ بهذه الكلمة مثلا عند رؤية أرنب، أو عند عدو أرانب، أو عند صيدها،

أو عند أخذ قطعة لحم من أرنب، وهنا أيضا يتبدى الجانب النفسي الذي أسبغه كواين على الإستمولوجيا، وتأكيدُه على أنها فصل من فصول علم النفس⁹، إذ يتعلم الفرد أسماء وعلاقات الأشياء الفيزيائية منذ الصغرو يفهم العالم من حوله مركزا على المثيرات والاستجابات واللغة المتصلة بها وصولا إلى المستويات العليا من النظرية العلمية، ويشرح بمثال كيفية اكتساب الحد "أحمر".

وطريقة اكتساب حد عام مادي بالإشارة هي مثلها طريقة اكتساب الحد المفرد المادي، « ولقد كان تبني الحدود المفردة المجردة (الذي جلب معه وضع فرضيات الكائنات المجردة) خطوة إضافية وثورية من الوجهة الفلسفية»¹⁰، وامتلاك الحدود العامة أصبح متاحا، إذ يعطي دفعا للغة، فلا تستحيل من دونها، وتوسع الفكر، وتفسح المجال لقضايا القيمة المختلفة من خلال القبول بالكائنات المجردة كما تسميها الحدود الجزئية المجردة، ولنتوحيّ الوضوح ينبغي إدراك العامل الإضافي في أي حالة من حالات إدخالها، والمتمثل في "صنف من" و "— ي"¹¹، إلا أنه قد يعترضنا إخفاق آخر من إخفاقات كواين*: الإخفاق في تقدير مثل هذا العامل الإجرائي الإضافي "غير المفسر"، وهو الذي ولد الاعتقاد في الكائنات المجردة.

ما يفسر قبول كواين بالكائنات المجردة هو الملاءمة الفكرية، كذلك يرى كواين أنه «حالما تُقبل الكائنات المجردة فإن آلتنا الفكرية تستمر وتولد تراتبية من التجريدات الإضافية لا نهاية لها»¹²، مثال ذلك إذا طبقنا العامل الإضافي "صنف من" و "— ي" على الحدود العامة المجردة مثل "شكل" - "نوع حيواني" يمكن تطبيقها على كائنات مادية، فنحصل على

حدود جزئية مجردة من المستوى الثاني، والتي تفيد في تسمية مثل هذه الكائنات على أنها صفة شكل أو أنواع حيوانية، أو صنف جميع الأشكال أو الأنواع الحيوانية، وللحصول على المستوى التالي يمكن تكرار العملية الإجرائية ذاتها، ويصفها كواين بأنها تتكرر من دون نهاية نظرية، ويحدد موقعا للكائنات المجردة بقوله: «وفي هذه المستويات الأعلى تقع الكائنات الرياضية مثل الأعداد ودوال الأعداد ... وذلك طبقا لتحليلات أسس الرياضيات المألوفة منذ فريجه صعودا إلى وائتمد وراسل»¹³، وهكذا يحل كواين معضلة الكائنات المجردة المسيطرة على خيالنا.

عمليات إدخال الحدود العامة والجزئية تتم عبر الإشارة وكذلك الشرح الخطابي أو ما يسمى معيار إعادة الصياغة في تأليف معقدة من الحدود الموجودة، إذ يفيد هذا الأخير في تعريف حدود عامة جديدة تنطبق على كائنات مجردة، فإذا تم الحصول على مقدار معين من الحدود المكتسبة بالإشارة تزول صعوبة شرح الحدود الإضافية بطريقة خطابية¹⁴، وتم الانتقال إلى المستوى التالي بتطبيق العامل "صنف من" و "ي"، إذن يتدرج كواين من المادي الحسي التجريبي إلى المجرد والعدد، وهذا يدفع الباحث إلى التساؤل عن موقع الأشياء الفيزيائية في مخطط التصورات العلمية عند كواين.

1- موقع الأشياء الفيزيائية في مخطط التصورات العلمية عند

كواين

يرتبط مخطط التصورات العلمية الذي يقترحه كواين بالأشياء الفيزيائية، إذ يعتبر هذا المخطط أداة وظيفتها التنبؤ عن المستقبل في ضوء

خبرة الماضي تبعا لمذهبه التجريبي، والأشياء الفيزيائية افتراضات موضوعية يذكر أنه أدخلها فكريا كوسائط ملائمة تماثل آلهة هوميروس، وليس لأن تعريفها حصل بلغة الخبرة¹⁵.

فكلا الشئيين افتراضات في أذهاننا والخبرة تؤكد وجود الأولى وتنفي وجود الثانية، ويرى الاعتقاد في هذه الآلهة أو في شيء غيرها خطأ علميا، ويوضح أنهما من حيث نظرية المعرفة لا يختلفان إلا في الدرجة (وليس النوع)، لأن «كلا نوعي الكائنات يدخل في تصورنا باعتباره موضوعا ثقافيا، وليس إلا»¹⁶.

إذ هو يبرز جعل هذه الآلهة ضمن تصورنا لكونها موضوعا ثقافيا، فالإنسان بطبعه كائن ثقافي، تُشكّل تصوراتّه ومحطات أخرى من حياته ثقافته لذلك هو لا يلغىها على الرغم من اعترافه بأنه فيزيائي، أما الاعتقاد بها وخلطها مع العلم فهذا خطأ علمي، وفي نظرية المعرفة يرى أنهما مختلفان في الدرجة لا النوع، ما يعني أن الأشياء لديه في ترابعية، وما يُعدُّ أعلى مكانة من الوجهة المعرفية هو أسطورة الأشياء الفيزيائية عن غيرها من الأساطير، لأنها أثبتت فعاليتها على غرار باقي الأساطير من الناحية التجريبية، باعتبارها حسب كواين: «وسيلة لإنشاء بنية يمكن التعامل معها في خضمّ الخبرة»¹⁷.

وليس هذا فحسب، فكواين يضيف أساطير تضاهي أسطورة الآلهة معرفيا، مثل: القوة في علم الفيزياء، والأصناف في علم الرياضيات¹⁸ ويعتبرها موضوعات فيزيائية.

2- علاقة الأسطورة بمخطط التصورات عند ج. لاكوف و م.

جونسون

اختار الدكتور حيدر حاج إسماعيل - مترجم كتاب كواين "من وجهة نظر منطقية"- في تقديمه له الحديث عن دور الأسطورة في العلم بذكر الباحثين جورج لاکوف George Lakoff ومارك جونسون Johnson Mark لبيان أن للاستعارة والأسطورة دورا في العلم وأن عصر الأسطورة لم ينقض بولادة العلم، ووقع على أحد الأجوبة عند هذين الباحثين.

الباحثان ج. لاکوف وزميله م. جونسون ميّالان إلى استعمال مصطلح "أسطوري" بمعنى غير استخفا في وله دوره، ويجعلانه شاملا للنظرتين الموضوعية والذاتية*، ويتبنّيان القول الآتي: «إنّ الأساطير توقّر طرقا لفهم التجربة، وهي تسبغ نظاما على حياتنا»¹⁹، وعليه فمخطط التصورات الذي يدعوان إليه مؤلف من استعارات، بل وينبغي أن يكون كذلك، فاستعمال الاستعارة خيار ثالث ما بين الموضوعية والذاتية لفهم العالم، والأسطورة تضاهي الاستعارة، وهي مثلها تماما ضرورية لإنشاء معنى لما يجري حولنا²⁰، أو ما نسميه بالتموقع في العالم من خلال إدراك أحداثه.

ومن بين الاستعارات التي تصف العلم استعارة من إنشاء كارل بوبر وأخرى من إنشاء نيوراث، وقد ذكرهما كواين في كتاباته، وكان ميّالا إلى استعارة نيوراث القائلة أنّ حالنا في بحثنا عن معرفة موثوقة تشبه حال البحّارة المبحرين في البحر دائما، وعليهم تأمين وتحسين صلاحية السفينة بالعمل الدائب على إصلاحها وبناءها بما هو موجود على ظهرها من مواد من قبل أو مما طفا على سطح البحر، ولا سبيل إلى إرسائها في البرّ وإعادة بنائها كلياً على أرض ثابتة، في إشارة إلى عدم وجود أساس للمعرفة، وقد اختار هذه الاستعارة بعد ثلاثين عاما شعارا لكتابه "الكلمة والشيء" وأهداه

لكارناب، أما استعارة بوبر القائلة بأن بنيان المعرفة العلمية قائم على مستنقع لا على صخر، تغوص الدعائم في المستنقع وتستمر في الغوص أكثر ثم تعود فتقدر على حمل البنيان، فإنّ كواين يبطلها ولا يعترف لا بالصخر ولا بالمستنقع أساسا للمعرفة²¹.

ثالثا. دور الأسطورة في مخطط التصورات الذهنية

وبالحديث عن الاستعارة ودور الأسطورة في مخطط التصورات الذهنية سواء أسطورة الأشياء الفيزيائية أو الأساطير الأخرى، وما يحدث من انتقاء وفهم للتجربة نسافر عبر الزمن نحو المستقبل، ونتوقف عند الفيلسوف والإبستمولوجي "ميشيل سير"^{*} الذي سافر هو الآخر عبر الزمن ولكن نحو الماضي، فعاد إلى النص الشعري اليوناني لوكريتيوس *Lecruces*، وأعاد قراءته بعيدا عن التأويلات الميثافيزيقية وتدخل الآلهة الرومانية التي أصدرها المؤرخون واعتبره ميلاد الفيزياء.

1- نظرة ميشيل سير:

نشر "ميشيل سير" النص سنة 1977 تحت عنوان "ولادة الفيزياء في نص لوكريتيوس"، فحوّله من نص شعري إلى محاولة علمية لفهم مجموعة من الظواهر الطبيعية والسموية بعيدا عن التدخل الميثافيزيقي للآلهة الرومانية²²، الفيلسوف الذي اهتم بالأجسام الصلبة واعتبره موضوعه الحقيقي، على غرار السوائل والظواهر الانتشارية والموجة والجسيم التي اهتمت بها الفيزياء من قبل والعقل العلمي الباشلاري²³، يميل بأسلوبه إلى الاستعارة ويوظفها بكثافة في كتاباته، فهو يُقيم جسورا بين العلم والأدب، بل ويميل إلى عدم فصل العلم عن باقي النتاجات المعرفية للإنسان،

«فحقيقة المعارف عنده سواء العلمية أو غيرها يجمعها في قالب قصصي ذا طابع أدبي»²⁴، إذ يبحث في تاريخ العلوم داخل الأساطير والقصص نظرا لغناها و«لكونها الفن الأكثر استهلاكاً لدى الناس»²⁵.

سير يستعير مبدأ عدم اليقين الفيزيائي من هيزنبرغ فيرنر Heisenberg على أنه استعارة الحرية وغير المتوقع في الفكر، ويستعير مثال الإسكافي الذي لا يتوقف عن عمله إلى آخر لحظة من حياته للدلالة على استمرارية تفكير الإنسان وتفلسفه، كما يستعين بأسطورة الملاك للدلالة على استعارة لدور الفيلسوف الذي يُظهر حال العالم المعاصر (في مؤلفه هرمس) في ظل تأثيرات العلم فيه.²⁶

وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجده غنياً جداً بحقائق معبر عنها بالاستعارة كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الآية 125 من سورة الأنعام) للدلالة على تناقص الأكسجين كلما صعدنا نحو الأعلى في الجو، وقوله أيضاً: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (الآية 187 من سورة البقرة) فأحدث ما توصل إليه علم الفلك أن الفاصل بين الليل والنهار يظهر كخيطة، إذ يقول سبحانه: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ (الآية 35 من سورة النور) في بلاغة وفصاحة، وما على المرء سوى أن يجتهد ويفكر في معاني هذه الأمثال والاستعارات، وفي سورة الأحزاب (الآية 10) بلاغة لا ككل البلاغات ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾، فمن شدة الموقف يبلغ القلب الحنجرة أو يكاد يبلغها في تعبير مجازي للدلالة على هول الموقف، أما في سورة النمل فنجد في أكثر من موضع منها قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ (الآيات 8، 67،

103، 121، 158، 174) تتكرر للدلالة على الاتّعاظ من القصة المسرودة قبلها.

إلا أن هذا التوظيف المكثّف قد يحول أمام إدراك المعنى المقصود منها بالضبط، وقد يكون السبب في ندرة ترجمة أعماله إلى باقي اللغات -كما يرجّح ذلك الدكتور يوسف تيبس- وبالتالي عزوف الدراسات عنها، ففي اللغة العربية نجد كتابا واحدا فقط تُرجم إليها*.

تدفعنا رؤيته هذه إلى التساؤل عن مدى قيمة الأسطورة لدى القدماء، وهل كانت ضمن تصوراتهم الثقافية -كما يراها كواين- أم أنها كانت مبلغ علمهم، أم كانوا يستشفّون حقائق منها ثم يعتقدون في صدقها، وهل مقدار وجودها لدى الحضارات هو معيار تقدّمها عندما تتقدم بها السنوات، وهل وجهة نظر سير تلغي التساؤل المطروح: هل انتهى عصر الأسطورة؟* وتحديدًا هل انقضى ذلك العصر بولادة العلم؟ وهل لها تأثير على مخطط تصورات الفرد العلمية؟

نفترض أن الفيلسوف "سير" قدّم بين طيات ما خطّه إجابة عن هذا السؤال بعد عقود، ونقتبس نصّين له قصد عقد مقارنة بينه وبين كواين حول مخطط التصورات.

2- النص الأول: أثر الثورة التقنية

يقول "سير" في حوار له مع الكاتب الفرنسي "روبير ماجيوري": «إن الفكر اختراع، ويسع احتضان مستجدات الكون وتطور أحوال العالم بتفرعاته وتشعباته لكن من أجل ذلك لا يمكننا الاكتفاء بمفاهيم باردة لبناء

كاندراينيات نظرية مهيبة، لكن لا حياة فيها، إذ لا يوجد شيء في الذهن إن لم يمتحن الجسم نفسه بالتجارب»²⁷.

يوطّد سير الصلة هنا بين ما هو موجود في أذهاننا وبين تَحَقُّقِهِ بالتجارب، فالعودة إلى نص قديم شعري لن تكون ضمن تصوراتنا ولا نعتقد فيها ما لم نتحقق مما انتقيناها على أنه نواة لعلم ما بالتجربة، ومن المؤكد أن التطبيق والتجريب يلعب دوره في اكتمال المفاهيم حتى لا تبقى باردة جوفاء من الناحية النظرية، إذ يصحّ بأنه يمزج الخطاب الفلسفي والإبستمولوجي والتحليل البارد للمفاهيم بـ «كلام» العمال اليدويين، في إشارة منه إلى احتكاك المفهوم بتجارب ومعايشات العمال «حطّابا كان أم صيّادا، بهلوانيا أم من فئة الصم البكم، خجولا كان أم جاهلا»²⁸، إذ أصبح أغلب أفراد المجتمع مالكين للمعرفة وعلى اطلاع بالمعلومة، وهو ما يدعوه اختفاء حدود المهن كالصحافي مثلا والابستمولوجي.

3- النص الثاني: أثر مفهوم ومعاني القصص

يقول سير: «كل قصة جاهزة لعدّة مداخل، هذا ما يسمح لكل مستمع بفهم مختلف عن الآخرين، ولبناء وجهة نظر من خلال توظيف ثقافته ومشاريعه، فكل تاريخ يقول ويعيد القول بطريقة أخرى لأجل إخراج مظاهر وطبقات أخرى من المعاني»²⁹، كما أنه «قد تخلص عن الأسلوب الحجاجي لأجل الرواية، يحكي تاريخ العلوم وينسج رواية بالمعنى الدقيق، ويضع فلسفة العلوم في حكاية رمزية»³⁰.

يراهن "سير" على أن كل قصة تسمح باكتشاف علم ما أو بواذرله، إذ علينا أن نعود إلى الماضي وننتقي منه ما يشكّل نواة لعلم ما، أسطورة

كانت أم قصة، ثم هي تتبع فهم المستمع لها، إذ يصف نفسه بالمسافر عبر مجالات الفكر وأزمائه، وإن ذلك لضروري للفيلسوف.

ما يمكن أن نسطره أيضا أن لكل فرد الحق في تأويل نص يقرؤه أو قصة يسمعه، هناك حرية في الفهم، وحرية في الانتقاء من مجموع مخططاته التصورية سواء الثقافية أو العلمية أو حتى المشاريع المستقبلية، والقصة الواحدة تحتوي على عدة فُهوم ومداخل وعلى الأفراد الكشف عنها، وهنا تتجلى نظريته "قوة التفكير"* والتي يدعو الجيل الصاعد إليها، خاصة في ظل الثورة التكنولوجية والمعلوماتية.

يصوغ سير نظريته وفق المعادلة التالية: «أن تفكر يعني تبذل»، فقد كان "سير" متجاوزا حدّ الثقيف وتخزين المعلومات إلى التفكير والإبداع، حتى لا نظلّ على أعتاب ترتيب المعلومات، إذ يجب ممارسة التفكير وعدم اتباع منهج واحد، فالتغيير وإحداث الارتباك هو ما سيأخذنا إلى اللامتوقع، بمعنى أنّ فلسفته تقوم على إحداث الفوضى والاضطراب فتتحقق التطورات نتيجة الخطأ³¹.

وعن الخطأ يقول أنّه لا يسكن نواة الفكر فحسب بل هو جوهر الإنسان، إذ عندما يخطئ يبذل، فهو لا يحاكي العناكب عندما تنسج خيوط بيتها بإتقان، وإن سألت: «ما الإنسان؟ فالإجابة: إنه الذي يقترب الأخطاء»³²، إذ يمزج سير ما توصلت إليه البشرية من التفكير والوقوع في الأخطاء والإبداعات بباقي المعارف ثم يقدّمها في قالب أدبي رمزي بمذاق علمي.

تلك هي طبقات المعاني التي يظهرها الأفراد من وجهات النظر التي يبنونها -مجتهدين في ذلك- من خلال توظيف ماضيهم ومستقبلهم في

حاضرهم، أي ثقافتهم ومشاريعهم في وجهات نظرهم والتي تقال ويعاد قولها بطرق مختلفة.

فبعد هاتين الرحلتين المتعاكستين زمنيا وعملية الانتقاء؛ إحداهما نحو الماضي بما يحمله من قصص وأساطير وثقافة والأخرى نحو المستقبل بما يحمله من مشاريع وواقع غير متحقق، يصوغ الإنسان تصورات في ذهنه انطلاقا منها، لكن فقط تلك التي صادقتها التجربة.

4- مقارنة بين كواين وسير

أوجه الاتفاق:

يتقاطع سير وكواين في القول باختلاف الفهم ما بين المستمعين، ولا بدّ من توظيف ثقافة المرء وما يطمح إليه في بناء وجهات النظر والأفكار أو ما يتعلق بإعادة البناء الخلاق للعالم عند كواين، وما يقابله من ضرورة التفكير لدى سير، على الرغم مما توفره التقنية عن العالم بل وتضيف له العالم الافتراضي وكل ما يتصل به، كما أن افتراض أسطورة الآلهة وقبولها في مخطط التصورات لأنها موضوع ثقافي، نجد سير في مخططة يقبل بافتراض أساطير وقصص جمّة ويُنبّج فيها ليستخرج منها ما يواكب العلم وخليفه التجريب؛ يصطلح عليه الضجيج أو الاختبارية ويحاول إزاحتها ليصل إلى العلم، فالعلم تظهر معالمه عندما يُقصي من الصورة أو من الشكل كل ما هو غير تجريبي، ومن ثم يعلو بالاستدلال على المادية ليصل إلى العام في ذاته وبالنسبة إلينا، فيلزم عن هذا أن الرياضيات عامة في ذاتها وبالنسبة إلينا لأنها أكثر العلوم صورية وتجريدا، ليلتقي حول هذه النقطة مع كواين؛ الذي سعى لصياغة العلم وترجمته³³ من حيث جمل الملاحظة والمنطق ونظرية

المجموعات رياضيًا وبترميز كل القضايا وجميع الجمل حول العالم، وإنّ هذا شيء جيد لكواين لو تمكّنّا من القيام به.

وكأنّ عملية الانتقاء يقابلها عند كواين حصره الاعتقاد فقط بالأشياء الفيزيائية، والمخطّط المفاهيمي لدى كواين هو المتحكّم في العالم وفي منطق اختياره ما بين النظريات، وأيّها يمثّل نظرية علمية واضحة إلى جانب معايير البساطة والأناقة والقدرة على التنبؤ، فهي التي تسيّر العالم دون وعي منه.

إن عبارة سير القائلة بأن كل تاريخ يقول ويعيد القول بطريقة أخرى بهدف إخراج مظاهر وطبقات أخرى من المعاني، يبدو منها للوهلة الأولى أن سير يناقض كواين في دفاعه عن مظاهر وطبقات المعاني الموجودة في كل قصة/ علم، خاصة وأن كواين يعتبر "المعنى" هو العدو اللدود له³⁴، وكان قد حاول إلغائه لكنه لم يستطع فأبقاه من جانب براغماتي، بحث فيه وأتعبه البحث فيه ولم ينجح سوى في الكشف عن غموضه وعدم نفعه، وأصبح لا يطبق كلمة "معنى" بل وصف حقلها "بأوحد حقل"³⁵، ولكن بتمحيص أكثر نجد سير وكواين متفقان من ناحية توظيف تلك المعاني من الجانب البراغماتي، فكواين عندما يبقى على المعنى من هذا الجانب فإنه يمثّل في فصله بين الأساطير الفيزيائية والأساطير الأخرى واعتبارها أعلى من غيرها من الوجهة المعرفية، ثم يُرجّح الكفة لما يمكن أن ينشئ لنا بنية نتعامل معها تجريبيًا، كل هذا كان على أساس المعنى وما هو ملائم للعلم أو ينافيه وكأنه يلقي به (المعنى) بعد أن يفرغ منه كسلم الفلسفة عند فتجنشتين، ويؤكد تفعيله لمبدأ أوكام.

أما الجانب البراغماتي عند سير فنجد في دفاعه عن نظريته في التفكير، وأنه يجلب له ولنا السعادة "فالتفكير سعادة عميقة" شعار لفلسفة سير، كما أن قوله كل تاريخ يقول ويعيد القول بطريقة مختلفة توحى لنا بفلسفته التي تربط بين التخصصات، وتستحضر الاتصال بين المعارف الإنسانية فتزعم عن العلم سلطة ملكية الحقيقة، وتفتح المجال أمام المعرفة المفتوحة والمتشعبة -ملغية الفكر الشمولي- هذا الاتصال يسمح بربط العلم بالأخلاق والجمال والقانون، ويحوّله إلى معرفة منتجة للحياة وليس للموت³⁶، هنا مكن الجانب البراغماتي مرة أخرى لدى سير، فقضية هيروشيما* صدمته وغيّرت مساره من "إبستمولوجي" إلى "عالم يربط علمه ومعارفه بالأخلاق والتفاؤل"، فلا يخلُق العلم مثل قضية هيروشيما مستقبلاً.

أوجه الاختلاف:

ممّا سبق نستنتج أنّ مسألة المصادقة على "المعنى" ووجوده تمثل نقطة اختلاف بين كواين وسير، فسير يقرّ بوجود المعاني وبتعدّدها حسب فهم الأشخاص لكل قصة على حدة، بينما كواين لا يعترف به - وقد سبق وأن ذكرنا أنه أبقاها لغاية براغماتية، إذ ينتقد في مقالته الثانية "عقيدتان في المذهب التجريبي، مفهوم المعنى عموماً ومعنى القضية (الجملة) خاصة، ويراه غامضاً وحتى محاولات إنقاذه بالتسمية أو بالترادف أو بغيرهما فإنها غير ممكنة، ويفضّل استعمال "القضية ذات مغزى"³⁷ أو "القضية مهمة" Significant على "القضية ذات معنى"، كما أنه في خاتمة المقال تناول بالحديث المذهب الحسي-التجريبي الخالي من العقائد الجامدة، يقول الدكتور حاج إسماعيل حيدر إننا نعثر على نقد ضمّني آخر للمعنى «مفاده أنّ

الكلام على معنى القضية غير مفيد، بسبب أنه مستمد من نظرة إلى العلم تعتبره مجموعاً أو تراكماً من القضايا، في حين أن النظرة إلى العلم يجب أن تكون لجسمه كله، أي نظرة كلية (Holistic)، إن العلم بحسب نظريته الكلية ليس بحدود (كلمات)، ولا قضايا (جمل) لنبحث عن معانيها في التحقق الواقعي»³⁸.

يرر كواين أيضاً رفضه لمفهوم المعنى بقوله أن لا شيء يمكن أن يُحسب معنى لتعبير ما، فالمعنى غير محدد وما يثبت هذه الحقيقة هو ما يظهر في الترجمة من لغة إلى أخرى، وحجته هي أنه إذا حاول إنسان أن يجمع كتاب ترجمة للغة أجنبية بواسطة ملاحظة سلوك متكلميها الفهمي والعام فإنه من الممكن جمع كتاب ثان متفق مع سلوكهم، وسيكون الكتابان عبارة عن ترجمتين مختلفتين لتعابيرهم، ولا وجود لخطة ترجمة تتحكم فيها معطيات سلوك متكلمي تلك اللغة وتجعلها ترجمة وحيدة³⁹.

سير أيضاً يقر بأهمية الثورة التقنية على مستوى مخطط تصوراتنا إذ أنها تغير تقريباً في كل شيء⁴⁰: المؤسسات، الممارسات ورؤيتنا للعالم، اللغات، الاهتمام بالأشياء، العلاقة بالآخرين، طرائق التعلم، الحق، السياسة، وكيونتنا في العالم بحد ذاته، وحتى طريقة العيش المشترك، ضف إلى ذلك أن المعلومة أصبحت متاحة حتى لدى الأطفال⁴¹ الذين يتمتعون بإمكانية الولوج بشكل فردي ومستقل إلى المعرفة، يسميهم سير "أطفال الرقمنة"، وهذا ما أضافه سير عن كواين.

ولا نغفل عن أهم ما يميزهما عن بعضهما وهو طبيعة الإستمولوجيا الخاصة بكلٍ منهما، فكواين يناصر إستمولوجيا طبيعانية

نحت لها دعائمها، وعند سير نجده يتبني ابستمولوجيا تعددية، إذ كل علم يُنتج إبستمولوجيته الخاصة به من داخله، فالإبستمولوجيا مع سير تحولت إلى فعل تخصصي ينجزه العلماء أنفسهم، وهناك إبستمولوجيا خارجية تدرس علاقات الابستمولوجيات الخاصة فيما بينها وعلاقتها مع العلم فتصد التفاعلات بين العلوم بما فيها الأدب، الفن، التاريخ، العلوم، الفيزياء ... الخ إذ أن هناك حركة نقل فيما بينها.

أوجه التماهي:

أمّا ما يتعلق بنسبية الحقيقة فيمكن اعتبارها أحد أوجه التماهي بين كواين وسير، فكل منهما يتبني موقف النسبية في النظريات العلمية التي تفسر الواقع، إذ كان سائداً آنذاك النظرية النسبية العامة والخاصة لأينشتاين، وكذا مبدأ هايزنبرغ الفيزيائي المتبني على نطاق واسع والذي يؤمن به كل من سير وكواين، فإن استعنا مصطلح "الإسقاط" من فلسفة كواين وأسقطنا الابستمولوجيا لديه بجانبها المفاهيمي والعقائدي⁴² على فكر سير، نجد أن الجانب المفاهيمي لها الممثل في شرح الجسم بمصطلحات حسية متوافرة عند سير من خلال قوله أن ما يوجد في الذهن هو ما امتحنه الجسم بالتجارب، كما أن قول سير أن الفكر يسع ويحتضن كل تطور ومستجد في الكون يوحي بتبنيّه لمبدأ النسبية، كواين كذلك يؤمن بمبدأ نسبية الحقائق العلمية ويظهر ذلك في كل نظرية علمية قابلة للمراجعة، بل هناك من يشكك في ما توصل إليه وصنّف ضمن النزعة الشكّية وهناك من دافع عن كواين ضد هذه الدعوى، ويمتد الأمر بكواين من النسبية في النظرية العلمية إلى النسبية الأنطولوجية في جهاز مفاهيمي متناسق وكلي، وعليه فالمعرفة

عند كلّ منهما ليست ثابتة يحكمها التطور والتغير استنادا إلى التجربة والتاريخ، والفهم العلمي يجب أن يتسم بالمرونة والقدرة على التكيف مع المستجدات والتحوّلات الطارئة.

استخلاص النتائج:

نستنتج مما سبق أن كواين وسير يوليان أهمية لثقافة المرء، ويستشّقان من الأساطير والاستعارات بما يكشف عن تفكيرهما الكثير يوضح رؤيتهما، ولا يتخليان عن محكّ التجربة والفيزيائية كفاصل للمعارف العلمية، وإن كانت لغة أحدهما منطقية رياضية ولغة الآخر سردية رمزية، فإن كلّاً منهما يُثقل كاهل اللغة بجملٍ تطوير العلم، ويجعل للتاريخ والثقافة نصيباً فيها كما يجعل للغة الحياة اليومية اتصالاً بلغة النظرية العلمية وللغة السرد والأسطورة اتصالاً بلغة العلم، فالتصور العلمي عند سير يدخل في تشكيله خطاب الأدب والأسطورة والعلم والثورة التقنية والخطأ والإبداع.

نتوصل أيضاً إلى أن الاتجاه البراغماتي كان حاضراً عند كليهما وتم توظيفه بما يلائم فكره، وأن فكرة تطور المعرفة العلمية كانت حاضرة أيضاً في فلسفتيهما وفكريهما، وهما بهذا يوظفان مفاد المصطلح "النموذج" "Paradigm" دون أن يستعملوا المصطلح بلفظ صريح، كما أن المعرفة طبيعانية عند كواين وتتصل فيها الفلسفة بالعلم، وعند سير نجدها متشابكة ومتداخلة بين مختلف المجالات وليست محصورة في تخصصات منفصلة.

رابعاً. مخطط التصورات ومدى مساهمة اللغة في العلم

تنبني النسبية الأنطولوجية عند كواين على أمرين، هذان القَوَّمان هما: المعرفة ليست مباشرة بل تنتقل عبر اللغة ومن خلالها، والمعرفة لها تاريخ، فهي تتطور وتتأثر بعوامل توجه مسار تطورها⁴³.

نرى أن لهذين القوامين علاقة وطيدة بالسؤال المطروح: كم ساهمت اللغة وكم ساهم التفكير الواقعي الحقيقي في علمنا؟

قد لا يحدد كواين نوع اللغة التي تنتقل عبرها المعرفة إن كانت رياضية منطقية ترميزية، أو حتى أدبية تعتمد الخطابات ومعيار إعادة الصياغة، لكنه يحصر أصل العلم في شيء واحد هو اللغة باعتبارها مكون تاريخي يحوز بعدا اجتماعيا وتحكمه نفس القواعد اللغوية (الاقتصاد في التأويل والبساطة)، وينبني العلم انطلاقا من عبارات الملاحظة والتي نتحقق منها بعبارات أخرى مثلها، فينتج تراكم معرفي عن التعلم والتجارب الإنسانية نسميه العلم، ومن جهة أخرى العلم هو تنسيق للغة الطبيعية المتداولة وتحكمه نفس القواعد اللغوية (الاقتصاد في التأويل والبساطة)⁴⁴.

يبرز العلم عند كواين بهذا المعنى ولا يفصله كما يقول عن اللغة، لكن السؤال الفلسفي الظاهر كم ساهمت اللغة وكم ساهم التفكير الواقعي الحقيقي في علمنا لا يعدو أن يكون سؤالاً مزيفا منشؤه نوع خاص من اللغة- كما أكد ذلك كواين- وإن كانت محاولة الإجابة عنه ستجعلنا في أزمة، فتبدو لنا ضرورة التكلم عن اللغة وكذلك عن العالم، هذا الأخير الذي لا ينفك الحديث عنه تطبيقنا لمخطط تصورات لغتنا الخاصة عليه، وقد لا يتبادر إلى ذهن المهتم بالإجابة عن هذا السؤال أننا سنبقى حبيسي مخطط تصوراتنا

الذي نشأنا عليه، إلا أن هذا المخطط مرّن ويمكننا التغيير فيه جزءا جزءا، وهو أيضا عصامي يطوّر ذاته بذاته ولا يحتاج لمساعدة من الخارج، فالعناصر الأساسية في العلم أو لتحصيل العلم هي اللغة والعالم ومخطط التصورات القابل للتطور ذاتيا، فكشفه هذا ككشف "أبقراط" لآلية الالتئام الذاتي للجروح في الجسم البشري، تلك الجروح التي يعبر عنها نيوراث بما يمكن أن يصيب السفينة من خلل، فيتوجب على البحّار إعادة بناء العطب الذي يظهر في السفينة وهي في عرض البحر⁴⁵، هذه هي مهمة وعمل الفيلسوف حسبته ونحتسب على كواين أنه جعلها كذلك، فهو يطور النظريات العلمية دونما حاجة إلى الإجابة عن هذه الأسئلة (مدى مساهمة اللغة/ التفكير الواقعي الحقيقي في العلم)، وهذا لأنه يرى أن الأشياء الفيزيائية إنما تطور اللغة كنمو اجتماعي وبالمثل تلك الأشياء الفيزيائية يُعبّر عنها بلغة، «بل إن التعابير عن الأشياء الفيزيائية شغلت مركزا أساسيا منذ الفترات اللغوية الأولى»⁴⁶، فكيف إذن للغة أن لا تساهم في علمنا وافر الإسهام والإمداد، وهي التي تُكتسب وفق الجانب التجريبي السلوكي كما شدّد على ذلك كواين، وهاتان الأخيرتان هما عماد العلم بشكل خالص.

خامسا. الهدف من مخطط التصورات العلمية عند كواين

عملية التحسين تطال مخطط تصوراتنا أي فلسفتنا، ونحن في أثناء ذلك لا نستغني عنه ولا نقارنه مقارنة غير موضوعية بواقع غير متصور، وعليه نحن لا ندعو إلى أن يكون مخطط التصورات مطابقا للواقع، ولا نقيس التغيرات التي تطرأ عليه بمعيار واقعي بل يجب أن يكون معيارا

براغماتيا، وهذه التصورات تُعدُّ لغة، الهدف منها ومن اللغة هو الفعالية في التواصل وفي التنبؤ⁴⁷.

يظهر أن التواصل والتنبؤ شقان متكاملان، فالتواصل يغذي الجانب الاجتماعي والثقافي للمرء، والتنبؤ يغذي الجانب العلمي، وبهذا يختم كواين على الفكر البشري باتصال العلم والفلسفة مضيئا أقنوما ثالثا لهما وهو اللغة، ويجعل لها (ثلاثتها) وظيفة مغايرة عن سبقه قائلا: «الهدف من التصورات ومن اللغة هو الفعالية في التواصل وفي التنبؤ، هذه هي الوظيفة الأخيرة للغة وللعلم ولللسفة»⁴⁸، وما تقييم مخطط التصورات إلا نسبة إلى ذلك الواجب.

وإن ثمة هدفا آخر للغة وللتصورات ألا وهو الأناقة والاقتصاد الفكري، الهدف الجذاب والغائب وهو ثانوي بحكم أنه توجد مخططات تصورية يمكن التعامل معها من الوجهة النفسية، وأخرى غير عملية يصعب على عقولنا التعامل معها بنجاح وفعالية⁴⁹، هنا يتسلل أحد حدود المعرفة التي تحدت عنها كواين في مقالته "حدود المعرفة" في كتابه "طرق المفارقة ومقالات أخرى"، فيقف العقل عاجزا عن النجاح في تمرير هذا الهدف، وتُعيقُ العوامل النفسية التي ما كان من المشروع الاعتداد بها منذ زمن قريب في الإستمولوجيا، وبذلك يقرّ كواين في ثنايا كتابه "من وجهة نظر منطقية" وكذا في الفصل الثالث "الابستمولوجيا الطبيعية" من كتاب "نسبية الأنطولوجيا ومقالات أخرى"، فقد كانت غير مقبولة إلا أن كواين يعطيها موقعا مميزا ومكانة لافتة في اللغة.

والأناقة لها وجهان تظهر بهما، إما أنها وسيلة لغاية مخطط تصورات يكون مقبولا براغماتيا، أو أنها غاية في حد ذاتها إذا كان قرار المعيار البراغماتي متعذرا فيما لدينا من خيارات، فنصبح ونظل كالشعراء ونتابع الأناقة لذاتها⁵⁰، وكأن هذين الهدفين "الأناقة والاقتصاد الفكري" علاجان لسقم أصاب كيان اللغة فأصبح بلسما لها يروق المستمع والمتحدث والمتذوق في آن واحد.

سادسا. خاتمة

نخلص من هذا المقال إلى مجموعة من النتائج:

- مخطط التصورات الكوايني يعتقد بالأشياء الفيزيائية فقط ويعطي دورا للثقافة في تشكيل المخطط دون أن تكون هي العلم، وينشئ صرح عالم خبرة تتعامل معه بالتجربة وهكذا يكون علميا، وهو قابل للتطور ذاتيا ومرن، قابل للتحسين وفي نفس الوقت لا نستغني عنه، كما أنه إرث ثقافي تشكّل بطريقة تخمينية، يرافق الإنسان من مراحله الأولى في التعلم (البيت والمدرسة) ويعتمد على اللغة، إذ بواسطتها يسمي الأشياء الفيزيائية منذ صغره فيكتسب الحدود العامة والحدود الجزئية، واللغة بدورها تُعدّ نموًا اجتماعيا للأشخاص.

- لا يفصل كواين بين مهمة العالم ومهمة الفيلسوف فكل من العلم والفلسفة علوم ولا تختلف درجة علميتها، لأن الفلسفة التي يدعو إليها فلسفة علمية - لا يوجد علم يُرجعُ إليه باقي العلوم أو تُبنى على مرجعية معينة- وكل سؤال فلسفي هو على قدم المساواة مع السؤال العلمي وله أنطولوجيته، أو كما يسميه كواين الالتزام الأنطولوجي للخطاب، فما يوجد

هو ما تقر نظرية علمية بوجوده مرتكزة على اللغة- ولا يقصد الوجود الميثافيزيقي- وهكذا فإن النظرية العلمية على صلة باللغة، والعالم له نفس وظيفة الفيلسوف "ذا الفلسفة العلمية"، وبالتالي التصورات العلمية كما يقول كواين تُعدُّ لغةً الهدف من كليهما هو الفعالية في التواصل والتنبؤ وكذا الأناقة الفكرية وفق معيار براغماتي خالص، إذ لا يُشترط في مخطط التصورات أن يكون مطابقاً للواقع ولا يُقاس بمعيار واقعي وإنما وفق معيار براغماتي، وكذلك عملية إدخال الحدود سواء الجزئية أو العامة تكون وفق هذا المعيار ونعيد صياغتها طلباً للوضوح واليقين أكثر مستخدمين معيار "إعادة الصياغة" الذي أخرجه إلى النور بنثام وهكذا نوسّع اللغة، ويطمح كواين كذلك إلى ترجمة جميع العلم بلغة منطقية رياضية في جمل الملاحظة والمنطق ونظرية المجموعات، كما يطمح سير إلى ذلك متأثراً في طموحه هذا بليبنتز.

- رغم النزعة الكواينية والتي تُدعى أطروحة دوهيم- كواين إلا أن هناك قصوراً طال مخطط التصورات لديه، فلو أضفنا الثورة التكنولوجية وما تقدمه للأفراد وللمجتمعات وعلمائها وفلاسفتها، بل حتى مشروع "أطفال الرقمنة" الذي يعلّق عليه "سير" أملاً وتفاؤلاً كبيرين، لوجدنا أن مخطط التصورات العلمية سينتفش وتُغذّيه هذه الثورة كما تُغذّي الأشياء الفيزيائية المخطط و اللغة عند كواين، فمخطط التصورات عند سير لا يقتصر على الأشياء الفيزيائية واللغة، إنه ممزوج بما تقدمه الثورة الرقمية وما تزال تقدمه، ويضيف له العالم الافتراضي ونظرية قوة التفكير، إذ يقول سير⁵¹: "العلم هو ما يُدرّسه الأب لابنه، والتكنولوجيا هي ما يُدرّسه الابن

لأبيه"، في إشارة منه إلى الهيمنة المطلقة للتكنولوجيا على مجمل الحياة البشرية، كما لا يلغي سير الطرق الأخرى في تحصيل المعارف إلى جانب التجربة، فالمعرفة لا يملكها العلم وحده بل تتكاتف المعارف الإنسانية لتقدم الحقيقة.

- مخطط التصورات العلمية عند كواين أو الخطاطة المفهومية هو أحد أجزاء الإستيمولوجيا الطبيعية إلى جانب اللغة والمواضيع العلمية، وهذه الثلاثية هي التي تميز طبيعة الإنسان، ومهمة الإستيمولوجيا الطبيعية التي هي فصل من فصول علم النفس هي التفكير في الطبيعة المعرفية والاجتماعية والإجابة عن سؤال كواين الثاني الجيد⁵² - كما يصفه -: من أين نأتي بقوة اعتقادنا في وجود العالم الخارجي؟ من أين نأتي بإصرارنا لتمثل الخطاب كتقرير عن الحقيقة، وعن الحقيقة الموجودة بعيدا عن الإثارة؟

- يصف سير الاستيمولوجيا الطبيعية عند كواين بقوله: "إنها إستيمولوجيا علمية لأنها تُعنى بنفسها دونما حاجة إلى ما يؤسسها"⁵³، وأرى هنا أنه يستعير تعبير نيوراث، كما أوافق رؤية سير بأن الثورة التقنية ارتقاء وتطور في جنس اللغة الذي يعتمد عليه مخطط التصورات والأشياء الفيزيائية تنمي اللغة كتطور اجتماعي، خاصة وأن مبحث الذكاء الاصطناعي مجال يشهد تطورا وانتشارا واسعا حاليا، وقد أحسن كواين بإشارته إلى بواده الأولى مع اختبار ألان تورينغ، كما أنه أمدّ ببارقة أمل حول بناء المعجم، وحاليا ستغزو المعاجم الذهنية و معاجم الذكاء الاصطناعي -إحدى مخرجات الثورة الصناعية الرابعة- خاصة حقل الترجمة وتوجّه مخطط التصورات العلمية في تحول جديد.

سادسا. الهوامش

1 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية –تسع مقالات منطقية فلسفية، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مراجعة يوسف تيبس، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، سبتمبر 2006، ص. ص. 150، 151.

2 Willard Van Orman Quine: Les voies du paradoxe et autres essais, trd. Serge Bozon et Sabine Plaud, Librairie Philosophique J. Vrin, 2011, p.389.

3 يوسف تيبس: التصورات العلمية للعالم – قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصر، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية ناشرون بيروت لبنان، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، ط1، 2014، ص. 317.

4 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية –تسع مقالات منطقية فلسفية، مصدر سابق، ص. 151.

5 Willard Van Orman Quine: Les voies du paradoxe et autres essais, I bid, p. 389.

6 Ibid, p. p. 389, 390.

7 Willard Van Orman Quine: Relativité de l'ontologie et autres essais, chapter 3 l'épistémologie naturalisée, présentation par Sandra Laugier, traduit de l'anglais (ETAT UNIS) par Jean Largeault, Aubier Philosophie, Paris, p. 88.

8 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية –تسع مقالات منطقية فلسفية، مصدر سابق، ص. 151.

9 Willard Van Orman Quine: Relativité de l'ontologie et autres essais, chapter 3 l'épistémologie naturalisée, I bid, p. 89.

10 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية –تسع مقالات منطقية فلسفية، مصدر سابق، ص. 151.

11 المصدر نفسه، ص. 151.

* إخفاقات كواين استنتجتها من قراءاتي لأفكاره، هي كالتالي:

1- إخفاق على مستوى المخطط الإبستمولوجي: إذ أن المتخصصين في دراسة أسس الرياضيات يختزلون الرياضيات إلى المنطق ويعتبرون أن جهودهم ستؤدي إلى نجاح كبير، اعتقادهم هذا مطلع القرن الواحد ولا يُعُدُّه كواين الأفضل، فبالنظر إلى الأشياء من وجهة نظر أقرب إلى الحاضر يجد أنه من الأفضل وصف مثل هذا الاختزال اختزالاً إلى المنطق وإلى نظرية المجموعات، وهذا الفارق الدقيق في المعنى هو ما يكافئ في المخطط الإبستمولوجي فشلاً وخيبة أو إخفاقاً. (كواين: الابستمولوجيا الطبيعية ضمن نسبية الأنطولوجيا ومقالات أخرى، ص. 83).

2- إخفاق ملاحظة التمييز بين شرح الحدود العامة بالإشارة مثل "مربع" وشرح الحدود المفردة المادية مثل "كيسر" (نهر بليديا)، فهناك حالات لا تحتاج إلى هذا التفريق البتة، مثل "أحمر" فهو حد عام وحد مفرد مادي في آن واحد.

3- إخفاق في تقدير العامل الإجرائي الإضائي غير المفسر "صنف من" – "ي" عند إدخال حدود عامة في حدود جزئية، وهو الذي ولّد الاعتقاد في الكائنات المجردة.

12 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية –تسع مقالات منطقية فلسفية، مصدر سابق، ص. 151.

13 المصدر نفسه، ص. 152.

14 المصدر نفسه، ص. 152.

15 . المصدر نفسه، ص. 34.

16. المصدر نفسه، ص. 34.

17 المصدر نفسه، ص. 34.

18 المصدر نفسه، ص. ص. 34، 35.

* يعّدان بنودا لكلا النظرتين، أبرزها ما يلي:

النظرة الموضوعية: فيها يبدو العالم مكونا من أشياء لها صفات مستقلة عن كل من يختبرها، إذ الاختبار هو سبيل معرفتنا بالعالم، ونحن نستعمل مقولات وتصورات لفهمه، ويمكننا قول كلام صادق أو كاذب عن العالم وبصورة موضوعية، كذلك الكلمات لها معان ثابتة، غير أننا نخالفهما في هذه الجزئية، فأحد معوقات اللغة أن الكلمة تحمل عدة معان، خاصة إن وردت في سياقات مختلفة كذلك الاستعارة وأنواع اللغة الشعرية والخيالية والخطابية والمجازية يجب تجنبها عند الحديث بموضوعية، فتعمل العقل لا العواطف، وكذلك يجب تجنب النظرة الذاتية.

أما عن بنود النظرة الذاتية: فهي استهلاكها للحواس والحدس يوميا، أهم الأشياء في حياتنا هو ما عبّر عن المشاعر والجماليات والأخلاقيات وكذا الوعي الروحي وأن الفن والشعر ولبدا الخيال، ومستحبان، كذلك لغة الخيال خاصة الاستعارة ضرورية للتعبير عن أكثر خبراتنا أهمية، وهو ما تحرمنا إياه النظرة الموضوعية المجردة، والتي يمكن أن تكون غير إنسانية. (ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية، مصدر سابق، ص-ص. 35-37).

19. ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية، مصدر سابق، ص-ص. 35-37.

20 المصدر نفسه، ص. 37.

21 المصدر نفسه، ص. ص. 37، 38.

* ميشيل سير Michel Serres (1930-2019)، فيلسوف ومؤرخ للعلم وكاتب فرنسي، عضو في "أكاديمية اللغة الفرنسية"، و"الأكاديمية الأوروبية للعلوم والآداب".

- 22 الفاهم محمد: ميشيل سير فيلسوف التحكم في التحكم، صحيفة الاتحاد، الخميس 13 يونيو 2019 05:00 سا، متاح على الرابط: <http://www.alittihad.ae> تاريخ الزيارة 2020/08/14، (23:00).
- 23 يوسف تيبس: التصورات العلمية للعالم - قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة، مرجع سابق، ص 326.
- 24 مصطفى تيان ولخضر مذبح: الجانب التجديدي في الخطاب الإستمولوجي عند ميشال سير، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري، المجلد 15، العدد 27-2018 (ص-ص 61-73)، تاريخ الإرسال: 2017/07/06 - تاريخ القبول: 2018/06/05، ص. 66.
- 25 مصطفى تيان ولخضر مذبح: المرجع نفسه، ص 65.
- 26 عزالدين بوركة: ميشال سير، فيلسوف العلوم والأدب، مجلة معنى، 11 مارس 2020، متاح على الرابط <http://www.mana.net>، تاريخ الزيارة 2020/08/14، 19:00 سا.
- * يشتغل على المراجعة النهائية له المترجم المغربي محمد زرين بعنوان: "الوسخ: التلوّث من أجل التملك" (نقلا عن: محمد زرين: مفكرة المترجم، العربي الجديد، الرباط، 04 جويلية 2018، متاح على الرابط: <http://www.alaraby.co.uk> تاريخ الزيارة: 2020/08/14، 14:30 سا)
- * يطرح هذا التساؤل الدكتور حيدر حاج اسماعيل في تقديمه للكتاب الذي ترجمه لكواين "من وجهة نظر منطقية" المنصوي ضمن العنصر "مصطلح الأسطورة في مخطط التصورات العلمية"، ص-ص 34-38.
- 27 روبر ماجيوري: ميشال سير لفلسفته جسم حقيقي له جلد وأحشاء ويدان خشستان كما له روائح وآلام، ترجمة: شكير نصر الدين، صحيفة الفيلصل، 01 سبتمبر 2019 متاح على الرابط: <http://alfissalmag.com> المصدر: ليبراسيون تاريخ الزيارة: 2020/08/15 الساعة 18:00 سا.
- 28 روبر ماجيوري: المرجع نفسه.
- 29 مصطفى تيان ولخضر مذبح: مرجع سابق، ص 65.
- 30 المرجع نفسه، ص. 65.
- * يطور هذه النظرية الفلسفية في كتابه "داروين، بونايرت والسامري: فلسفة للتاريخ" الذي صدر سنة 2016، فالفكرة قوة، لأن الفكرة هي أم الابتكار. (نقلا عن: عزالدين بوركة: ميشال سير، فيلسوف العلوم والأدب، مجلة معنى، مرجع سابق).
- 31 سعيد بوخليط (المترجم) حوار مع ميشال سير التفكير سعادة عميقة، مصدر الحوار: Science humans: numéro 274 – September – October; 2015 ; 01/07/2019. متاح على الرابط: 13: 8 <http://www.alhadath.ps> تاريخ الزيارة: 2020/08/15، 15:00 سا
- 32 سعيد بوخليط: المرجع نفسه.

33 Willard Van Orman Quine: Relativité de l'ontologie et autres essais, chapter 3 l'épistémologie naturalisée, I bid, p. 88.

34 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية -تسع مقالات منطقية فلسفية، مصدر سابق، ص. 25.

35 المصدر نفسه، ص. 268.

36 محمد الفاهم: ميشيل سير فيلسوف التحكم في التحكم، صحيفة الاتحاد، مرجع سابق.

* قضية هيروشيما: ولو أنه يتذكر سلطة هتلر وستالين ولا يتذكر جرائم فرنسا على أرض اسمها الجزائر (من 1830 إلى 1962)، فعقوده الثلاثة لحظة استقلال الجزائر تدخل ضمن كينونته، لكنه لا يشيح عن بشاعتها في وجه موطنه ولا في وجه الشخصيات الفرنسية التي قادت الحرب آنذاك، ويتناسى كذلك عندما يصرح بتفاؤل أننا في عصر سلام ووداعة أطفال سوريا وفلسطين والعراق والحروب السياسية على الساحة.

37 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية، مصدر سابق، ص. 18، 19.

38 المصدر نفسه، ص. 19.

39 المصدر نفسه، ص. 23، 24.

40 روبر مارجوري: المرجع السابق.

41 عزالدين بوركة: ميشيل سير، فيلسوف العلوم والأدب، المرجع السابق.

42 Willard Van Orman Quine : Relativité de l'ontologie et autres essais chapter 3 l'épistémologie naturalisée, I bid, p. 85.

43 يوسف تيبس: التصورات العلمية للعالم، مرجع سابق، ص. 316.

44 المرجع نفسه، ص. 317.

45 ويلارد فان أورمان كواين: من وجهة نظر منطقية -تسع مقالات منطقية فلسفية، مصدر سابق، ص. 152، 153.

46 المصدر نفسه، ص. 151.

47 المصدر نفسه، ص. 153.

48 المصدر نفسه، ص. 153.

49 المصدر نفسه، ص. 153.

50 المصدر نفسه، ص. 153، 154.

51 الفاهم محمد: صحيفة الاتحاد، مرجع سابق.

52 Willard Van Orman Quine: Les voies du paradoxe et autres essai, I bid, p. 390.

53 يوسف تيبس: الإستيمولوجيا الطبيعية عند ويلارد فان أورمان كواين، مجلة رؤى تربوية، العدد التاسع والعشرون، ملف الثقافة العلمي

سابعاً. المراجع

- 1- مصطفى تبان ولخضر مذبوح، الجانب التجديدي في الخطاب الإستمولوجي عند ميشال سير، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري، المجلد 15، العدد 27-2018 (ص-ص 61-73)، ص 66 تاريخ الإرسال: 2017/07/06 - تاريخ القبول: 2018/06/05).
- 2- ويلارد فان أورمان كواين، من وجهة نظر منطقية -تسع مقالات منطقية فلسفية، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مراجعة يوسف تيبس، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، سبتمبر 2006.
- 3- يوسف تيبس، التصورات العلمية للعالم - قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصر، ابن النسيم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية ناشرون بيروت لبنان، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، ط1، 2014.
- 4- يوسف تيبس، الإستمولوجيا الطبيعية عند ويلارد فان أورمان كواين، مجلة رؤى تربوية، العدد التاسع والعشرون، ملف الثقافة العلمية، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.
- 5- Willard Van Orman Quine, Les voies du paradoxe et autres essais. (S. Bozon, & P. Sabine, Trads.) France: Librairie philosophique J.VRIN. 2011.
- 6- _____, Relativité de l'ontologie et autres essais, chapter 3 l'épistémologie naturalisée, présentation par Sandra Laugier, traduit de l'anglais (ETAT UNIS) par Jean Largeault, Aubier Philosophie, Paris.
- 7- _____, Les voies du paradoxe et autres essais, trd. Serge Bozon et Sabine Plaud, Librairie Philosophique J. Vrin, 2011

المواقع الإلكترونية:

- 1- الفاهم محمد، ميشيل سير فيلسوف التحكم في التحكم، صحيفة الاتحاد، الخميس 13 يونيو 2019 05:00 سا، متاح على الرابط: <http://www.alittihad.ae> تاريخ الزيارة 2020/08/14، (23:00).
- 2- عزالدين بوركعة، ميشيل سير، فيلسوف العلوم والأدب، مجلة معنى، 11 مارس 2020، متاح على الرابط: <http://www.mana.net>، تاريخ الزيارة 2020/08/14، 19:00 سا.
- 3- محمد زرنين، مفكرة المترجم، العربي الجديد، الرابط، 04 جويلية 2018، متاح على الرابط: <http://www.alaraby.co.uk> تاريخ الزيارة: 2020/08/14، 14:30 سا
- 4- سعيد بوخليط (المترجم) حوار مع ميشال سير التفكير سعادة عميقة، مصدر الحوار: Science humans: numéro 274 – September – October; 2015 ; 01/07/2019. متاح على الرابط: <http://www.alhadath.ps/8> :13 تاريخ الزيارة : 2020/08/15، 15:00 سا
- 5- روبر ماجيوري، ميشيل سير لفلسفته جسم حقيقي له جلد وأحشاء ويدان خشنتان كما له روائح وآلام، ترجمة: شكير نصر الدين، صحيفة الفيصل، 01 سبتمبر 2019، متاح على الرابط: <http://alfissalmag.com> المصدر: ليبراسيون تاريخ الزيارة: 2020/08/15 الساعة 18:00 سا.